الرسّام

ياسين أبو الهيتم*

- ١ -

كانت الشمس تنسحب رويدًا من الساحة. وكنتُ أُطلّ من السطح فأنقل بصري بين الصومعة واللوحة المثبّتة جانبي على حاملٍ ذي سيقانٍ ثلاث.

كان حسن مستلقيًا على كرسي عتيق تحت شجرة كرم انبثقتْ ساقُها من أصص ضخام، وتخلّلتْ أغصانها في أعواد شُبكتْ لتكون سقيفةً فوق باب الغرفة السطحية. ومن السقيفة تدلّت عناقيدُ العنب، فلامس أحدُها ـ ربما عن عمد ـ قفصًا يحوي زوجين من طيور الدرة القوسية. كان حسن يداعب قطةً عن يمينه ما انفكّت تموِّج ظهرَها، ويفكّر.

سألتُه من مكاني إنْ كان قد فرغ من رسم اللوحة، فجاء صوتُه من أمام غرفته باردًا: «أعتقد ذلك.» دعوتُه إلى التعجيل بالخروج، لأنّ الطريق إلى سقاية للاعودة[1] طويل.

- ٢ -

وُلد حسن وترعرع في توامة بضاحية مرّاكش. ودَرَس بالمعهد الوطني للفنون الجميلة بتطوان. تفوّق، فاختير لإكمال تعليمه العالي في الفن بباريس.

رجع إلى المغرب فاشتغل بكلّ شيء: فلاحًا، ثم مدرِّسًا عَرَضيًا بوزارة التربية الوطنية، فأستاذًا موقّتًا للفنون التشكيلية بثانوية الحسن الثاني.

في فندق غير مصنَّف من فنادق روض الزيتون القديم التي ما فتئتْ تتزايد، يكتري حسن غرفةً سطحية. يُشْرف الفندقُ على ساحة جامع الفنا، في خضوعٍ لصومعة الكتبية الحارسة.

في طريقنا إلى ساقية للاعودة، مساءَ افتتاح المعرض الفني، استفسرتُه عن اللوحة التي أَنْهى أو أَوْشك أن ينهي رسمَها. فبيَّن لي أنّه قرَّر ضمَّها إلى لوحاته المعروضة. كان قد رفض ذلك في البدء، لكنّه ذَكَرَ كلام بنسودة معيبًا نطقَه صوتَ الراء: «اللوحات المرسومة بالأصباغ المائية عمرُها قصير. ولا تشجِّع أحدًا اليوم على اقتنائها.» فَعَدَل إلى القرار الأول.

هذه اللوحة رَسمها على ثوبٍ مشمّع، بأصباغ زيتية، وبشطحاته الغرائبية المعهودة: ساحة تزاحمتْ فيها قرودٌ، لبعضها رؤوسٌ أحمرةٍ، ولبعضها الآخر رؤوسُ طيرٍ، وثمة صومعة باسقة لا أساس لها، وأشياء أُخَر.

- ٣ -

ذات يوم سبت من شهر شتنبر (أيلول)، والعنبُ يأخذ في النضج على السقيفة، وقبل أسبوع من افتتاح المعرض بسقاية للاعودة، استقبل حسن في غرفته (ورشته) بنسودة، وهو صاحبُ رواق «الفن» لبيع اللوحات بجليز. وافاه، تَسْبقه كرشُه العظيمة. رحّب حسن طويلاً ببنسودة وأخلى له الكرسيَّ المتمايل. على الكرسي استلقى بنسودة وأغمض عينيْه بعد أن فتح الأزرارَ العلويةَ من قميصة فبدى صدرُه أشعرَ. كان منهكًا من الارتقاء في الدرج.

طمع حسن في أن يبتاع بنسودة لوحةً أو لوحتيْن منه، عساه يلْجم فمَ ربّ الفندق. وكان بنسودة عَيْنُه قد اشترى من حسن لوحةً قبل أن يسافر هذا الأخير إلى فرنسا لإكمال دراسته. حدث ذلك منذ أربع سنوات. وتلك اللوحة التي اختار حسن «الساحة» عنوانًا لها هي اليوم ضمن لوحات تزيِّن قنصليةَ فرنسا بالمدينة.

---

* ـ كاتب مغربيّ. والقصة مهداة إلى حسن التومي.

١ ـ سقاية عتيقة من آثار مراكش، حوَّلتْها وزارةُ الثقافة إلى معرض فني يقع في باب دكالة ويُعرف بـ «مرسم مراكش،» وتَعْرض فيه الآن جمعيةٌ أسَّسها رسامون شبّان جُلُّهم من الذين دَرَسوا مع حسن بمعهد تطوان.

أخذ بنسودة يتكلّم بعد أن انتظمتْ أنفاسُه: «أيُّها المبدعون! أيُّها الفنانون! ألا تفكّرون في مَنْ يروم زيارتَكم بالأبراج؟ حَصلَتْ لي الآن حقيقةُ كلام يوسف فاضل»[1]:

«أنا لا أَبْحث عن مسكن بالسطح، بل أُساق إليه.»

ضحكا طويلاً، فاستطرد حسن:

ـ الحق أنّي أَلِفْتُ هذا المكان.

ـ لكنّ علاقتك برب الفندق بدت، من كلامه معي، غيرَ وطيدة.

أمسك الاثنان عن الكلام. فأشعل بنسودة سيجارةً كوبية، ونهض إلى سور السطح فأَشْرف على الساحة، وقال كأنّه يحدِّث نفسه:

ـ حبُّكَ للساحة ما زال قويًا.

ثم قال مستنكرًا بصوتٍ أبين:

ـ ألن تريني اللوحات؟!

عرض عليه حسن لوحاته واحدةً واحدة. وفصّل في الشرح، حتى انتهى كلامُه إلى المذاهب الفنية وتاريخ الرسم ولوحتِهِ: «الساحة.»

قال بنسودة في خيبة: «بعد هذه السنوات، كنتُ أتوقّع على الأقل منك لوحةً في مستوى 'الساحة'. كما أنّك أدرى منّي بأنّ اللوحات المرسومة بالأصباغ المائية عمرها قصير...»

يومئذٍ قال حسن لي: «ألن نتعدّى الحدود إذا دعونا القنصلَ إلى حفلة الافتتاح؟!»

ـ ٤ ـ

زرتُ حسن يوم الجمعة بعيْد المغرب. وتسامرنا حتى بعد منتصف الليل. تكلّم هو غالبًا، وكنتُ أصغي إليه. كان ذلك ليلة افتتاح المعرض. وكان ثملاً. طفق يتكلّم، وقصّ عليّ ما يأتي: «درسنا ثلاثين مذهبًا فنيًا، من الكلاسيكية إلى العبثية. كل مذهب استقام في أكثر من عشر سنوات. فكأنّني درستُ على الأقل ثلاثمائة سنة فنية. ويأتي ابن الـ... كصاحب الفندق (وخبط الأرضَ برجله خبطًا) ليهدِّدني بإلقاء حاجياتي في الدرب إنْ لم أدفعْ له! لعن اللّه أباه، ولعن الدنيا التي أَفْضتْ بي إلى هذا اليوم، ولعن الفنَّ الذي لا يَشْفع لأهله! اسمعْ يا صاحبي. أنا لا أَفْهم ما يَجْمع رسامًا سوريالِيًا بكاتب مثلك. لن تفيدك في شيء صداقتُنا. إنّه لحريٌّ أن تصاحب شكري أو غلاّب، وأنا سأبحث عن عزّ الدين التازي. ماذا كنت أقول؟ تفو! نعم، أفكّر في رسم لوحة وأنا سكران. وسأنشئ جمعيةً داديّةً. هل تريد الانخراط؟ (قهقه عاليًا) حتى بنسودة يَطْلب لوحةً في مستوى 'الساحة'! لقد ذكّرني بتلاميذي الذين حكيتُ لك عنهم.»[2]

قلت له: «لِمَ لا ترسم شيئًا يَفْهمه الناس؟!»

---

١ ـ استضاف برنامج «أقواس» في إحدى حلقاته المسرحيَّ والروائيَّ والسينارست يوسف فاضل. وذكر الكاتب أنّه لا يصرّ على استئجار شقة بالسطوح، بيْد أنّه يجد نفسه دومًا منساقًا إلى ذلك.

٢ ـ أخبرني بأنّ تلاميذ الصف الذي كان يدرِّسهم في ثانوية الحسن الثاني شكّكوا في قدرته على رسم حصان، وتحدّوْه. لكنّه لم يأبه لإثبات مهارته، فحدقت الشكوكُ بأعطافه، وتحدّث الكبيرُ والصغيرُ عن قدراته وأهليّته وحتى شخصيّته، وتآمر أساتذةُ المادة والمديرُ والمفتش عليه، فلم يُمنح التزكية، وأُعفي نهايةَ السنة الدراسية.

ـ تجيد الإنصاتَ وتتكلّم في الوقت المناسب. يجب أن تَفْهم يا صديقي أنّ المدارس الفنية تعاقبتْ بموازاة الفكر الإنساني. أنت تَكْتب وتَفْهم هذه الأمور. سأَعْرض لوحاتي في المسرح. وحالما أنتهي من كتابة المونولوج سأَعْرضه على ممثلٍ تعرَّفتُ مؤخَّرًا عليه (بلَغَنا مواءٌ من باحة السطح شديد). القطة العاهرة لَمَّتْ ثانيةً قططَ الدرب.

خرج يترنّح، فعقبتُه من فوري. فرّت القطط. كان يسبّ في سفاهة. تواعدْنا على اللقاء في اليوم الموالي. وأصرّ على أن ينزل معي حتى باب الفندق.

ـ ٥ ـ

افتُتح المعرضُ مساءَ السبت مثلما كان مقرّرًا. ولم يحضرْ جمهورٌ «نوعيّ» لأنّ أحدًا من الشباب لم يجشّم نفسَه مشقةَ إخطار بعض الصحفيّين الذين يكتبون عن النقد الفني ببلادنا. ورغم ضيق المرسم وكثرة العارضين، فقد اتّفقوا أنّ القلب وسيع!

في اليوم التالي حضر إلى المرسم شابٌ أَظْهر اهتمامًا بلوحة لحسن؛ فقد نَزَعَ نظارتيْه الطبيتيْن وكاد يُقْحم رأسَه في الثوب الصبيغ. أسرع حسن إليه، وأَسْهب بحماس في الكلام عن اللوحة والسوريالية، وعن لوحته «الساحة» التي تزيِّن قنصلية فرنسا بالمدينة. فطلب الشاب من حسن لوحةً لغلاف روايته. وَعَدَه في فتور بالنظر في الأمر بعد انصرام أيام العرض، وقصَّ عليه حكايةَ أخته مع لجنة مناقشة بحثٍ تقدَّمت به لنيل الإجازة.(١)

حسن على يقين بأنّ الشباب لن يصبروا طويلاً. كانو يُعدّون الشايَ بركن من المرسم، ويتحدَّثون طوال الوقت. النقاش متعب، والمواضيع التي تثير اهتمامًا مشتركًا لا تلبث أن تثير التأفُّف. كان حسن يشعر بأنّ الشباب يستثقلونه، بحيث لم يكن يتلكأ عن شرح لوحاته لمن حَدَسَ لديه وميضَ فضولٍ ولو خافتٍ.

وفي الأمسية كان حمزة شنايدر(٢) وبيانوه يضفيان على المكان طابعَ الرومانسية. فلا يكفّ جمهورٌ من المحبِّين والسابلة عن التناوب على كراسي العرض المفتوح.

في اليوم الثالث من أيام العرض زار القنصلُ المرسمَ. وقع ذلك أصيلَ يوم اثنين. سأل عن حسن، وشكَر دعوتَه، وأعرب عن إعجابه الشديد بلوحة «الساحة» التي اقتنتها القنصليةُ من رواق الفن. جال في المعرض، وحين وصل إلى جدار عُلِّقتْ عليه لوحاتٌ وُقِّعتْ باسم حسن أومأ إليه، وسأله: «ماذا تحكي هذه اللوحة؟» تحدَّث حسن وأطنب عن السوريالية، قائلاً إنّ أصلها هو الحركة الدادية التي قادها الفنانُ والمفكِّرُ الفرنسي تريستان تسارا عام ١٩١٦، وإنّها اتجاه يَهْدف إلى إبراز التناقض في حياتنا أكثر من اهتمامه بالتآلف. وتحدّث عن الفارق بين الأعمال الواقعية والأعمال السوريالية، وعن مراحل تطوُّرها (السوريالية) الثلاث، وأنّ فرنسا هي الأم التي رعتْها منذ بداية القرن العشرين. قاطعه القنصل موضحًا: «كنتُ أنتظر لوحات منك على درب 'الساحة،' (وصافحه مضيفًا) لا تَجْعلها بيضةَ الديك!»(٣)

---

١ ـ لم يكن حسن مولعًا بقراءة الأدب. ورفوف مكتبته الصغيرة لم تَحْمل منه إلاّ ديوانًا لرامبو **صور ملوّنة**، ورواية لناتالي ساروت **ثمار الذهب**، وأخرى لألان روب غرييه **الغيرة**، ومسرحية لصمويل بيكيت **في انتظار غودو**، وقصاصات من جريدة لفصول رواية غير مكتملة للتازي بعنوان: **ضحكة زرقاء**. وقد فتنتْه أشعارُ رامبو بسبب أخته التي كانت تحدِّثه كثيرًا عنه، وقرأتْ له قصائد من أعمال الشاعر في عدة مناسبات، وزيّن غلافُ بحثٍ ـ هيّأتْه في الأدب الفرنسي لنيل شهادة الإجازة عن رامبو ـ برسمٍ حَسِبَه معبِّرًا. إلاّ أنّ رسمه فَتَحَ بابًا للجنة مناقشة البحث لم تَقوَ أختُه على رتجه.

٢ ـ حمزة شنايدر فنان فرنسي يعزف على آلة البيانو والكمان. يقيم بمراكش منذ عدة سنوات.

٣ ـ يقال إنّ الديك يبيض بيضةً واحدةً في عمره.

عاد حسن تلك الليلة جزعًا مغتاظًا. عرَّجَ على درب الزاوية وتوقّف في صفّ حيال بيت لا يُفتح من بابه الحديدي غيرُ خصاص صغير. وعلى طول الطريق الرابطة بين باب دكالة وروض الزيتون ردَّدَ مرارًا: «الأكرش والقنصل يريدان لوحة في مستوى 'الساحة'.» كأن يتأبّط قنينةَ ماء الحياة ويتجرّع منها خفيةً جرعاتٍ متواصلةً.

- ٦ -

بعد انقضاء أيام العرض بأقل من أسبوع، هرع ذاتَ صباح رجالُ الوقاية المدنية لإطفاء حريق شبَّ في غرفة سطحية من فندق بروض الزيتون. وفيما كان رجال الإطفاء منصرفين إلى إخماد النار التي توقّدتْ في اللوحات والأعواد المشبكة والحامل ذي السيقان الثلاث وفي كل شيء، كانت قطةٌ تَرْقبهم وهي جاثمةٌ على سور السطح.

سقطت الأغصانُ الخضراء من الدالية على الأرض.

وصفَّق زوجا الدرّة القوسية، داخل قفص يَحْمله رجلُ إطفاء، بجناحيْهما من الفزع.

ومَضَتِ القطةُ تجرّ كرشها...

مراكش

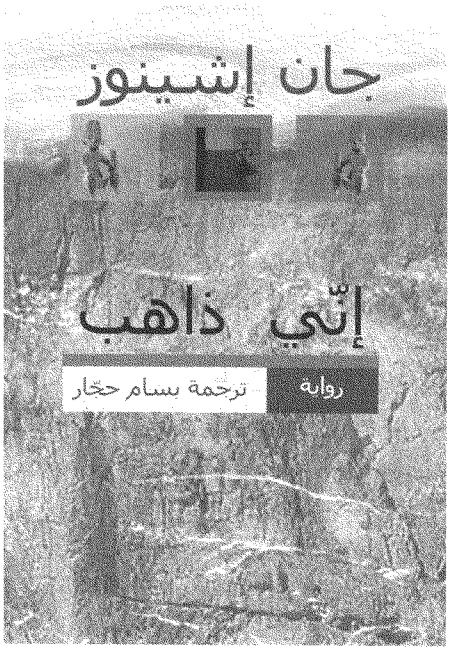

إنّي ذاهب، قال فيرّي، سأهجُرُك. أتركُ لكِ كلّ شيء، لكنّني سأرحل. ولمّا أغضت سوزان لفرطِ حيرتها، شاخصة البصرِ إلى منشبِ كهربائي، ترك فليكس فيرّي مفاتيحه على كونسول المدخل. ثمّ زرّر معطفه قبل أن يغادر مغلقًا وراءه باب المقصورة برفق.

جان اشينوز، من مواليد أورانج (فرنسا) عام ١٩٤٧. من أعماله: شيروكي، والحملة الماليزية، وبحيرة، ونحن الثلاثة، وشقراوات (الصادرة عن دار الآداب) وإنّي ذاهب التي حازت جائزة «غونكور» - أبرز الجوائز الأدبية الفرنسية.